من غزل الفقهاء

للأستاذ علي الطنطاوي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

واسمع يا سيدي أنشدك ما يحضرني من غزل الفقهاء ، لا أستقصي ولا أعمد إلى الترتيب ، وإنما أروي لك ما يجيئني ، وما يدنو مني مصدره .

هذا أبو السعادات أسعد بن يحيى السنجاري الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ فاسمع من شعره ما ترقص منه القلوب ، وتطرب الألباب: حلاوة ألفاظ ، وبراعة معنى ، وحسن أسلوب ، قال من قصيدة له :

وهواك ما خطر السلو بباله ولأنت أعلم في الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عذاله
أو ليس للكلف المعنى شاهد من حاله ينفيك عن تسآله

جددت ثوب سقامه ، وهتكت ستر غرامه ، وصرمت حبل وصاله أقرله سبقت له أم خلة مألوفة من تيهه ود

وهذا الإمام الصوفي عبد الله بن القاسم الشهرزوري الملا بالمرتضى أفا قرأت قصيدته :

لمت نارهم وقد عسعس الليل ومل الحادي وحار الد

التي لم يقل في معاني أهل الطريق مثلها ، والتي تطاول أعلى شعراء (الرمزية) منكباً ، وسابق بها أوسعهم خطوة[1]

أو ما سمعت شعره ؟ هاك منه قوله :

فعاودت قلبي أسأل الصبر وقفة
عليها فلا قلبي وجدت ولا صبـ
وغابت شموس الوصل عني وأظلمت
مسالكه حتى تحيرت في أمر

وهاك قول ظهير الدين الأهوازي الوزير الفقيه ، تلميذ اسحق الشيرازي[2] :

(١) تجدها كاملة في ترجمته في الوفيات ، وتجد بعضها في الكت من أدب العرب لمدارس مصر .

(٢) الوفيات ٢ — ٩١

أميراً أقل من سنة ، وهذا لا يمكن وقوعه نظراً لما تطلبه الجندية الإسلامية في مصر من تهيئة واستعداد وتدريب ، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سنوات طويلة .

والعادل كتبغا رجل من أعاظم رجال القرن السابع والقرن الثامن الهجري ، وقد وفاه المؤرخون حقه أيام توليه السلطنة ، وبعد عزله منها وإقامته أميراً بالشام وهو الذي قفى على الفتن عند مقتل الأشرف خليل ، ووطد أركان الملك للناصر محمد وهو في العاشرة من عمره ، وقد بدأ حياته وهو على دين التتار ، وأسلم وحسن إسلامه ، وقال عنه صاحب الدرر الكامنة « كان قليل الشر يؤثر أمور الديانة شجاعا مقداما سليم الباطن رفيقا بالرعية »

وفي عهد سلطنته لجأ إلى مصر آلاف من بلاد التتار وهم الاويراتية فسكنوا بالقاهرة واختلطوا بأهل البلاد . ولما عزل من السلطنة تولى قلعة صرخد ثم نائبا بمدينة حماة ، وفي أثناء نيابته بها هجم التتار على الديار الشامية في عام ٧٠٢ فحضر الجهاد وهو محمول على محفة لمرضه وكبر سنه وهذه نهاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان وكان ذلك في معركة «شقحب» التي ساهم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وحرض فيها جيوش المسلمين على القتال .

وفي يوم الجمعة الموافق يوم عيد الأضحى من تلك السنة توفي العادل زين الدين كتبغا التتري الأصل وهو مسلم ومؤمن ونقل إلى التربة التي بناها بسفح جبل قاسيون بمدينة دمشق غربي الربوة الناصري رآها ابن كثير وقال « هي تربة مليحة ذات شبابيك وبوابة ومئذنة وله عليها أوقاف للصرف على وظائف من قراء وأذان وإمامة » وختم بقوله « كان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً وكان من خيار الأمراء والنواب رحمه الله » .

وانتهت حياة الشاب التتري الذي جاء محاربا للإسلام والمسلمين فأصبح مجاهداً في سبيل الإسلام والمسلمين فأعطى مثلا لقوة الإسلام وعظمته وأثره في شؤون الكون وكيف ينقلب أعداؤه فيصبحون سيوفا يذودون عنه وأنصاراً يقاتلون في سبيله .

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

وإنى لأبدى فى هواك تجلدا ... وفى القلب منى لوعة وغليل
فلا تحسبن أنى سلوت فربما ... ترى صحة بالمرء وهو عليل

وقول أبى القاسم القشيرى الإمام الصوفى العلم :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا ... ورأيت كيف نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع محدثا ... وعلمت أن من الحديث دموعا

والبيت الثانى من مرقصات الشعر .

وكان مع ذلك علامة فى الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية الكبار ، وهو صاحب الرسالة التى يعتدها الصوفية ككتاب سيبويه عند النحويين ، ولا ينصرف الإطلاق إلا لها ، ومن شعره :

ومن كان فى طول الهوى ذاق لذة ... فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها ... أمانى لم تصدق كخطفة بارق

ومن شعر القاضى عبد الوهاب المالكى الفقيه المشهور المتوفى سنة ٤٢٢ والمدفون فى قرافة مصر ، وصاحب الخبر المستفيض لما خرج من بغداد وخرج أهلها لوداعه وهم يبكون ويعولون وهو يقول : والله يا أهل بغداد ، لو وجدت عندكم رغيفا كل يوم ما فارقتكم . ويقول :

سلام على بغداد فى كل موطن ... وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

ويقول فيها :

بغداد دار لأهل المال طيبة ... والمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

وهو معنى جيد وتشبيه عجيب .

وهو القائل :

متى يصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثنى الأصاغر عن مراد ... وقد جلس الأكابر فى الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يوما ... على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالى ... فقد طابت منادمة المنايا

ومن غزله الذى يتغزل فيه بلغة الفقه والقضاء ، فيأتى فيه بالمرقص المطرب قوله :

ونائمة قبلتها - فتنبهت ... وقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى (فديتك) غاصب ... وما حكموا فى غاصب بسوى الرد
خذيها وكفى عن أثيم ظلامة ... وإن أنت لم ترضى فألفا على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه ... على كبد الجانى ألذ من الشهد
فباتت يمينى وهى رهمان خصرها! ... وباتت يسارى وهى واسطة العقد
فقالت ألم تخبر بأنك زاهد ؟ ... فقلت : بلى مازلت أزهد فى الزهد

وهاك القاضى الجرجانى مؤلف (الوساطة) على بن عبد العزيز الفقيه الشافعى ، الذى ذكره الشيرازى فى طبقات الفقهاء[1] ، صاحب الأبيات المعلمة المشهورة :

يقولون : لى فيك انقباض، وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت ... أقلب طرفى إثره متندما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته ... وإن مال لم أتبعه لولا وربما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة ... إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسى أن أضاحك عابساً ... وأن أتلق بالمديح مذمما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟ ... إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ويا ليت كل عالم ينقش هذه الأبيات فى صدر محرابه ، وعلى صفحة قلبه ، ويجعلها دستوره فى حياته ، وإمامه فى خلائقه !

والأبيات الأخرى :

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شيئان حرما ... علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خير من وقوفى بها العسر

وله فى هذا المعنى الشعر الكثير الجيد ، أما غزله فسهل حلو منه قوله :

مالى ومالك يا فراق ... أبداً رحيل وانطلاق
يا نفس موتى بعدهم ... فكذا يكون الإشتياق

وقوله :

قد برح الحب بمشتاقك ... فأوله أحسن أخلاقك

(١) الوفيات ١ — ٤٠٨ .

لا تجفه وارع له حقـــه فإنه آخـــر عشاقك

وهاك القاضي سوار (الأصغر) بن عبد الله من أهل القرن الثالث الذي يقول :

سلبت عظامي لحمها فتركتها عواري في أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفراق ترعدت مفاصلها من هول ما تتحذر
خذي بيدي ثم اكشفي الثوب فانظري
بلى جســـدي لكنني أتستر !
وليس الذي يجري من العين ماءها ولكنها روح تذوب فتقطر

وهاك قاضي القضاة ابن خلكان المشهور ، وكان يعشق الملك المسعود بن المظفر ، وكان قد تيمه حبه ، قال القاضي التبريزي : كنت عنده في العادلية (دار المجمع العلمي اليوم) في بعض الليالي ، فلما انصرف الناس من عنده قال لي : تم أنت ههنا . وألقى على فروة ، وقام يدور حول البركة ، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبحنا فتوضأنا وصلينا ، والبيتان هما :

أنا والله هـــالك آيس من سلامتي
أو أرى القـــامة التي قد أقامت قيـــامتي

ولما فشا أمره ، منع الملك ابنه من الركوب ، فاشتد ذلك على ابن خلكان ، فكان مما قال :

إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ورأيتم هجري وفرط تجني
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبي
ومن البليـــة والرزية أنني أقضي ولا تدري الذي قد حل بي
قسما بوجهك وهو بدر طالع وبليل طرتك التي كالغيهب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي خلع العـذار ولو ألح مؤنبي
لـكن خشيت بأن يقول عواذلي قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم قديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي
لا تفضحن بحبك الصب الذي جرعته في الحب أكدر مشرب

وله فيه شعر كثير جدا .

ومن شعر محمد بن داود الظاهري ، وكان فقيهاً على مذهب أبيه داود وكان شاعراً :

أزور في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو انه يصب على الصخر الأصم تهدما

ومن شعر أبي الفضل الحصكفي[1] الفقيه الشافعي :

أشكو إلى الله من نارين : واحدة في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين : سقم قد أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي
ومن غمومين : دمعي حين أذكره يذيع سري ووشى منه بالرصد
ومن ضعيفين صبري حين أبصره ووده ويراه الناس طوع يدي

* * *

ولو ابتغيت الاستقصاء ، وتتبعت المراجع ، لجمعت من غزل الفقهاء كتابا ، فأين بعد هذا يزعمون أن الفقهاء كرهوا الشعر ، وتنزهوا عنه ؟

أما إنها لم تقل السنة علمائنا ، ولم تكل أقلامهم ، ولم تخفت أصواتهم ، إلا حين أضاعوا ملكة البيان ، وزهدوا في الأدب ، وحقروا الشعر ... فهل لعلمائنا عودة إلى ما هم أخلق به ، وأدنى إليه ، وأقدر لو أرادوه عليه ؟ !

وردت في المقال المنشور في العدد الماضي كلمتان في أبيات سعيد بن المسيب على غير وجههما الصحيح وهما :

وعلت فتات المسك ، وقامت ترائي يوم جمع ، وصوابهما : وعالت ، وتراءى .

علي الطنطاوي .

(١) نسبة إلى حصن كيفا في العراق ، وأظنه هو المعروف اليوم بتل كيف والتحقيق عند صديقنا الأستاذ العزاوي .

إعلان

تقبل العطاءات بإدارة المخازن والمشتريات بوزارة الزراعة بالدقي لغاية ظهر يوم ١١ أبريل سنة ١٩٤٦ عن توريد خراطيم كاوتش ولاكورات لقسم وقاية المزروعات . وثمن النسخة من الشروط والمواصفات ٣٠ مليما بخلاف ٣٠ مليما أجرة البريد . ٥٠٧٩